الأهرام

المصدر : الاهـــــــرام

التاريخ : ٢٨ سبتمـــبر ١٩٩٥

.. ولم يعد هناك سلام مستحيل!

مرسى عطـا اللـه

عندما تتسلط الكاميرات والعدسات اليوم على الاحتفال الكبير الذى يقام فى البيت الأبيض الأمريكى لتدشين مراسم التوقيع النهائى لاتفاق توسيع الحكم الذاتى الفلسطينى، فان الجميع سوف يذكرون بكل الفضل والعرفان دور مصر العظيم فى وضع بذرة السلام الأولى، ثم دورها الأهم فى حماية نبت السلام من أن تقتلعه رياح التطرف والتشدد التى تهب على المنطقة تباعا وتستهدف وقف حركة التاريخ وتعطيل دوران عجلة السلام والعودة الى سنوات الدم واللهب والنواح!

●●●

لقد كان مستحيلا أن يكون هناك راية واحدة من رايات السلام ترفرف فوق سماء المنطقة بغير شجاعة المبادرة المصرية قبل ١٨ عاما مضت!

وكان مستحيلا ان يكون هناك أى تقدم على مختلف مسارات التفاوض خصوصا على المسار الفلسطينى بكل تعقيداته ورواسبه المزمنة، بغير دور مصرى فريد لم يكن مجرد «عراب» لعملية السلام، ولا مجرد «وسيط» بين أطراف التفاوض، وانما كان دور الشريك الكامل.

وأظن انه كان مستحيلا على الفهم والخيال ان يتصور أحد ان تصبح مدينة طابا المصرية رمزا حيا لانتصار ارادة السلام. وقد كان الرهان السائد لسنوات طوال انها المدينة التى ستشهد نهاية درامية لعملية السلام التى بدأت بزيارة السادات الدرامية للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧.

كانت طابا فى ساحة التحكيم الدولى موضع نزاع بين مصر واسرائيل، ولم تكن أهمية عودتها للسيادة المصرية بعد صراع قانونى وتاريخى مرير انها جزء من التراب الوطنى فحسب، وانما لان عودتها كانت بمثابة تجسيد لاقتراب الاحتكام للتاريخ والابتعاد عن التمسك بالاوهام والأساطير!

ثم كانت طابا خلال الأيام الماضية مسرحا حيا ومفتوحا لكى تتأكد الحقيقة التى اريد تغييبها طويلا عن المنطقة، وهى ان ارادة السلام يمكن ان تتخطى وان تتجاوز أصعب العقبات والتحديات.

وأظن ان ما أعلنه الرئيس مبارك خلال استقباله للرئيس عرفات فى القاهرة بعد ساعات قليلة من التوقيع بالاحرف الأولى على اتفاق طابا مساء الأحد الماضى كان هو التوصيف الدقيق لدور مصر الذى لم يكن مجرد «عراب» لعملية السلام ولامجرد «وسيط» بين أطراف التفاوض.

كان دور مصر محددا فى مغزى ومعنى ومضمون واضح قاله مبارك وهو: «ان مصر تعتبر القضية الفلسطينية قضيتها».

كان دور مصر هو دور الشريك الكامل، ومن ثم فلم يكن أمرا غريبا ان تكون القاهرة هى محط انظار الجميع طوال الساعات الحرجة التى سبقت توقيع الاتفاق، ثم خلال ساعات الفرحة الساخنة التى اعقبت توقيع الاتفاق.

ويلفت النظر أن عرفات وبيريز حرصا - كل على انفراد - خلال مراسم توقيع اتفاق طابا ان يوجها شكرا متميزا للرئيس مبارك، ثم يجىء عرفات الى القاهرة، ثم يتلقى الرئيس مبارك اتصالا هاتفيا من الرئيس الامريكى بيل كلينتون يحمل كل معانى وعبارات الاشادة والتقدير لدور مصر فى انقاذ مفاوضات طابا والحفاظ على قوة الدفع اللازمة لاستمرار عملية السلام برمتها.

●●●

والحقيقة ان ماحدث فى طابا ويجرى تدشينه اليوم فى واشنطن يمثل انجازا تاريخيا بكل المقاييس، ويصرف النظر عن الانتقادات الحادة التى يوجهها معارضو عملية السلام على الجانبين الفلسطينى والاسرائيلى للاتفاق أو أولئك الذين يرون ان به أوجه قصور كثيرة من وجهة النظر الفلسطينية دون أن ينكروا انه يعتبر خطوة هامة تفتح الباب لبناء أول دولة فلسطينية، أو أولئك المتشددون من المستوطنين الذين يعتبرون الاتفاق كارثة وبمثابة استسلام اسرائيلى لمطالب السلطة الفلسطينية.

ومع الاحترام لكل وجهات النظر والدوافع التى ينطلق منها هؤلاء المعارضون فانهم يتجاهلون الفارق الشاسع بين التسوية التفاوضية وبين الشروط الاستسلامية!

إن ماحدث فى طابا كان نتاج تسوية تفاوضية حول نزاع ليس كمثله نزاع فى جذوره التاريخية وتعقيداته العنصرية.

كان من الطبيعى أن تخرج التسوية - رغم انها مرحلية - فى صورة يشعر فيها كل طرف بانه حصل على شىء وان ماضاع منه فى هذه المرحلة لايمثل هزيمة له وانتصارا للطرف الآخر!

وبغير هذا الفهم والادراك لقواعد حل النزاعات لم يكن لاتفاق طابا أن يرى النور... وهنا تكمن عظمة دور مصر وخبرتها التفاوضية!

كان لابد لكلا الطرفين ان يدركا أن فشل الاتفاق لايعنى مجرد انتكاسة سوف تلحق بعملية السلام فحسب، وانما خطورتها فى انها قد تضرب تيار الاعتدال فى المنطقة باسرها ضربة مميتة وموجعة تمكن صقور العنف والتطرف والصراع ان يعودوا للامساك بمقاليد الأمور مرة أخرى.. وتلك كارثة لايقدر عليها أحد!

وكان لابد لكلا الطرفين ان يدركا حجم ماوقع من متغيرات اقليمية وعالمية عميقة تراجعت معها خرافات واساطير وأوهام كانت تغذى خصومات وحزازات وعداوات، لم يعد الكبار فى عالم اليوم مستعدون للتخندق خلفها بعد أن سقطت كل معالم الاستقطاب العالمى بشكله القديم!

وكان لابد لكلا الطرفين - وخصوصا اسرائيل - أن يدركا مخاطر استمرار انتهاج سياسات العنف وتبنى سياسات القوة، بعد ان اثبتت تجربة الصراع العربى الاسرائيلى لاكثر من ٤٥ عاما أن القوة وحدها لن تستطيع ان توفرا امنا لأحد، وان الميزان سوف يظل معلقا ويصعب ان ترجح فيه كفة على كفة مهما تعاظم ا لحشد ومهما بلغ التفوق العسكرى لأى طرف!

ومرة اخرى أقول ان بلوغ الطرفين لمرحلة ادراك هذه الحقائق لم يكن بعيدا عن جهد مصر ودورها، مستشهدة فى ذلك بما حققته فى ساحة الحرب عام ١٩٧٣ من اسقاط لنظرية الأمن الاسرائيلية، وبما تحقق على صعيد السلام المصرى الاسرائيلى دون ان يمس التزام مصر ودورها القومى تجاه أمتها العربية.

●●●

وقد يكون ضروريا ومنطقيا أن نطرح على أنفسنا سؤالا هاما:

ماهو التقييم الصحيح لاتفاق طابا ونتائجه المحتملة؟

والجواب هو:

ان أحدا لايستطيع ان يعطى على الفور تقييما نهائيا لاتفاق مرحلى لانه مجرد خطوة فى معركة تفاوضية شرسة، ومن الصعب ان يحكم أحد على اتفاق مرحلى بمقاييس التسوية النهائية المنشودة.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

لعلى أقول ان الستار لم يسدل بعد على المشهد النهائى اذا استخدمنا لغة المسرح، كما ان الحكم لم يطلق صفارته النهائية اذا استخدمنا لغة الرياضة!

ولا أظن أن أحدا يستطيع أن يكتب نقدا موضوعيا عن مسرحية بمجرد مشاهدة فصل واحد من فصولها، أو يعطى تقييما لمباراة فى كرة القدم على أساس نتيجة شوطها الأول!

ان رئيس وفد التفاوض الفلسطينى أحمد قريع عبر عن ارتياحه للاتفاق باعتبار أنه خطوة هامة للغاية على طريق اقامة الدولة الفلسطينية ونقل السلطة الفلسطينية لأول مرة الى الضفة الغربية بما لها من صلاحيات، ولخص قريع ارتياحه فى نقطتين اساسيتين هما:

١ ان الاتفاق أتاح لأول مرة فى التاريخ أن يجرى الفلسطينيون انتخابات ديمقراطية لم تكن لتحدث دون التوصل الى هذا الاتفاق.

٢ ان الانتخابات ستشمل انتخاب رئيس السلطة الفلسطينية وانتخاب المجلس التشريعى الذى يتولى انتخاب رئيسه، وبذلك يكون قد تحقق هدف اقامة كافة السلطات الثلاث التى تمثل البداية الاساسية لقيام كيان اية دولة مستقلة وهى السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية.

ولكننى أعتقد ان من بين أهم انجازات الاتفاق هو وضع القدس على خريطة التفاوض الفعلية والنص صراحة على انه بمقدور الفلسطينيين من سكان القدس الشرقية العربية الاشتراك فى الانتخابات وانه يجوز لفلسطينى القدس خوض الانتخابات مادام لهم عنوان اقامة ثان فى غزة أو الضفة.

ذلك فى اعتقادى انجاز ضخم، حتى ولو كان دون المطالب والحقوق المشروعة للفلسطينيين لأننا جميعا نعلم كيف كان يصر الاسرائيليون على ابقاء القدس خارج العملية التفاوضية، ولاننا جميعا نعلم ان اتفاق طابا اتفاق مرحلى وينص ضمن ماينص على ان يتحدد مصير القدس والمستوطنات واللاجئين فى مفاوضات الوضع النهائى التى تبدأ فى موعد لايتجاوز مايو ١٩٩٦ وان يتم التوصل لاتفاق نهائى بشأنها بعد عامين.

إن الاتفاق فى شكله الظاهرى يعكس خريطة معقدة وبه أوجه قصور عديدة مافى ذلك شك، ولكنه على الجانب الآخر يمثل أول بداية حقيقية لانهاء ٢٨ عاما من الاحتلال الاسرائيلى ووضع اللبنات الاولى لكيان فلسطينى لن تستطيع اية قوة أن تحول دون تحوله تلقائيا الى دولة.

ولابد من الاعتراف أن هذا الاتفاق لن تكون له قيمة حقيقية الا اذا جرى تنفيذ ماتم الاتفاق عليه بروح بناءة، وان الخطر يتمثل فى مدى قدرة اسرائيل على كبح جماح الـ٤٥٠ مستوطنا يهوديا الذين يقيمون فى بضعة مبان متناثرة داخل مدينة الخليل وسط ١٢٠ ألف عربى فلسطينى.

ولابد من أن يكون هناك تعاون فلسطينى اسرائيلى متكافىء وتحت مظلة من صدق النوايا لمواجهة قوى التطرف من الجانبين الذين يعارضون الاتفاق ويخططون لنسفه!

●●●

ثم أصل الى قرب الختام لأقول ان اتفاق طابا الذى سيجرى تدشينه بصفة نهائية فى واشنطن اليوم قد فرض مجموعة من الحقائق السياسية الجديدة، وقد استطيع اجمالها فيما يلى:

١ لقد ثبت ان السلام أقرب الى الممكن منه الى المستحيل اذا توافرت الارادة القوية والنوايا الصادقة والقيادة الشجاعة.

٢ ان الصراع التفاوضى لايقل شراسة وعنفا عن الصراع العسكرى، وانه مثلما يشهد الفكر العسكرى تطورا متلاحقا فى علوم الاستراتيجية ومبادىء التكتيك، فان الفكر السياسى يواجه هو الاخر تطورات سريعة فى علوم الاستراتيجية ومبادىء التكتيك المتعلقة بفنون التفاوض وأساليب حل النزاعات.

٣ ان معركة السلام مازالت مفتوحة لكل الاحتمالات، وبالتالى فانها تتطلب المزيد من الاستعداد والتهيؤ لما هو قادم من مواجهات شرسة وعنيفة بشأن القضايا الجوهرية التى رئى تأجيلها للمرحلة النهائية مثل القدس وعودة اللاجئين ومستقبل المستوطنات.

٤ ان الانتخابات الاسرائيلية على الأبواب وسوف تحكم نتائجها سياسة اسرائيل وتوجهاتها للسنوات القادمة التى يفترض ان تشهد مفاوضات الحل النهائى، ومن هنا تأتى اهمية الدور الذى يمكن أن تلعبه كافة القوى الدولية والاقليمية المهتمة بعملية السلام من اجل تعزيز وتقوية تيار الاعتدال فى الشارع الاسرائيلى والحيلولة دون وصول قوى التطرف الى سدة الحكم هناك.

٥ ان الاعتراف بالدور الامريكى المؤثر فى مسار عملية السلام لاينبغى ان يؤدى بالجانب العربى والفلسطينى الى تجاهل الدور الاوروبى فى المرحلة الحاسمة القادمة، خصوصا وأن قضية القدس مثلا تحظى باهتمام أوروبى ينبغى استثماره.

٦ ان التسليم بأهمية المسار الفلسطينى باعتبار أن القضية الفلسطينية هى لب النزاع فى الشرق الأوسط، لا يجب أن يكون على حساب المسارين السورى واللبنانى وضرورة العمل على كسر الجمود الراهن لكى تكتمل عملية السلام.

□

ثم تبقى كلمة اخيرة: وهى أن ماسنشهده اليوم فى واشنطن لابد وأن يجعلنا فى مصر نشعر بمزيد من الرضا، لأن معظم ماأشهده فى العاصمة الامريكية بشأن ترتيبات ومراسم الاحتفال تنبعث منه رائحة مصر الزكية وسيرتها العطرة كدولة عريقة حاربت بشجاعة وتفاوضت بشرف.. وساعدت باخلاص!

حقيقة لابد أن نعيها... ولابد أيضا أن نقولها... بكل الفخر... وبكل الاعزاز... وبكل المسئولية!

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية